﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ ٥٢﴾ [سبأ: 51 - 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لـكـلّ سـعـي غـايـةٌ، وغـايـةُ الـضّـالّ سـوءُ المُنْقَلَب

لمّا عرّض بهم بضلالهم، وحصل تقريرُ الرّسالة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾، ذكر هنا استحقاقَهمُ العقوبةَ، حين يحِلّ بهم الفزعُ من مشاهد الموت، والبعثِ، ساعةَ لا ينفعُ التّدارُكُ والنّدم[1]، ولمّا قال: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ أخبرَ هنا أنّه وإنْ لم يعذِّب عاجلًا ولم يعيِّن صاحبَ الحقِّ في الحال، فيومُ الفزعِ آتٍ لا فوتَ، وإنّما يَستعجِلُ بالعذاب من يخافُ فوتَ الجاني منَ العقوبة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزِعُواْ﴾: (فزع) أصلان صحيحان، أحدُهما الذُّعر، والآخرُ الإغاثةُ[3]، وفَزِعَ الرجلُ إذا رُعِبَ، فالفَزَعُ: انقباضٌ يعتري الإنسانَ ونفارٌ من كلّ شيءٍ مخيفٍ، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فَزِعْتُ منَ الله، كما يقال: خفت منه[4]، والفزعُ في الآية: الخوفُ المخصوصُ بالمفاجأة[5].

2) ﴿فَوۡتَ﴾: (فوت) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه[6]، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِنَ العِقابِ[7]، والمعنى المرادُ هنا: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ ممّا استحقّوه منَ الجزاء[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فزع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فزع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوت).
(7) الراغب، المفردات: (فوت).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

3) ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: (نوش) أصلٌ يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ[1]، والتّناوشُ: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أوِ التَّناوُلُ السَّهلُ أوِ الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِنَ الحوضِ ونحوِه[2]، والمقصودُ في الآية: التَّناوُلُ السَّهلُ، أي: ومِن أينَ لهم أنْ يتناولوا الإيمانَ تناولًا سهلًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولو رأيتَ أيّها الرّسولُ هؤلاء المكذّبين، حين يَفزعون ممّا رأوا منَ العذاب الشّديد؛ لرأيت منَ الأمر ما يعجزُ القولُ عن وصفه، فهم لا يتمكّنون منَ الهرب، ولا يفوتُهم ذلك العذابُ، ولا يجدون ملجأً ولا مأوى يبتعدون فيه، ثمّ ذكر أنّهم حين معاينةِ العذاب يقولون: آمنّا بهذا الدّين، ومن أين لهم في الآخرة تناولُ الإيمان والتّوبةُ منَ الكفر، وكان ذلك قريبًا منهم في الدّنيا فضيّعوه، وكيف يَظفرون به في الآخرة وهي بعيدةٌ عن دار الدّنيا التي هي محلُّ قَبول الإيمان[4].

الدّنيا مَزْرعةُ الآخرة، فلا تصلحُ الآخرةُ لأعمالِ الدّنيا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى (الواو) في ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

جملةُ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾ [سبأ: 31]، تعديدًا لأحوالهم عند نزول الوعيدِ بهم، فهم يَجمعون إلى وقوفهم للحساب الفَزَعَ منه[5]، ويصحُّ أن تكون الواوُ للاستئناف النّحويِّ؛ لأنّ الجملة شروعٌ في معنًى جديدٍ عنِ الكلام قبْلها[6].

ساعةُ الحسابِ ساعةُ الفزعِ، فلا يلوذُ بالأمان إلّا أهلُ الإيمان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوش).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 358.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 243.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 100، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 311.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 536.
(6) صافي، الجدول: 11/ 243.

معنَى (لو) وعلّةُ إيثارِها دون غيرها:

(لو) في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ شرطيّةٌ امتناعيّةٌ، أي: امتناعُ وقوعِ الجواب؛ لامتناع الشّرط، والجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: (لرأيت حالًا عظيمةً، أو أمرًا عظيمًا مُدهشًا)، فامتنع عدم اطّلاعه على ما يُدهِش؛ لامتناع رؤيتِه إيّاهم فَزِعين في ذلك الوقت[1].

الخوفُ والترهيبُ يحصلُ بمجرّدِ التّخيّلِ، فكيف بالمُعاينة والاطّلاع

ولم يقل في السّياق الكريم: (وإنْ ترى إذ فزعوا)؛ للدّلالة على البُعد في وقوع الشّرط، فشرطُ (لو) أبعدُ من (إنْ) في الوقوع[2]؛ إذ لو أُطْلِعَ لرأى منَ الأمر ما يعجزُ القولُ عن وصفه.

هولُ المرئيّ منَ العذاب يعجزُ الوصفُ عنِ الإحاطة به

نكتةُ حذفِ جوابِ (لو):

حُذف جوابُ (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾؛ للتّهويل والتّشنيع على حالهم، والتّقديرُ: لرأيت أمرًا فظيعًا[3]؛ لأجل أن يذهب الذّهنُ في تقديره كلَّ مذهب؛ أو لأنّك مهما قدّرت، فالأمرُ أعظمُ ممّا قدّرت[4].

مهما قدّرَ العقلُ فأمْرُ الحسابِ أعظمُ ممّا قدّرَ

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الرّؤية:

الرّؤيةُ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ بصريّةٌ يُراد بها الاطّلاعُ والمعاينة، أي: لو اطّلعتَ عليهم وقتَ فزعهم، وهذه الرّؤيةُ العينيّةُ هي التي يتركّبُ عليها نظرُ العقل، واعتبارُ القلب، ولها في القرآن نظيرٌ نحوَ قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، وقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: 12][5].

رؤيةُ البصرِ تستلزمُ رؤيةَ البصيرة

نكتةُ اجتماعِ المضارعةِ مع الماضويّةِ في الآية:

عبّرَ في قوله: ﴿فَزِعُواْ﴾ بالماضي؛ لتحقّق وقوعِه بالخبر الصّادق،

الحوادثُ المُدهِشَةُ لا تنقضي عجائبُها في الذّكريات

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 89.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 90، 91.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 307.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 564.

والظّاهرُ أنّه وقتُ البعث وقيامِ السّاعة، وعبّرَ بالمضارعة في: ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لقصد تجدّدِ العجَب الحاصلِ منَ الرّؤية، كأنّه قيل: لا ينتهي عجبُك واندهاشُك واستفظاعُك إذا رأيتهم فزِعين، فكأنّ الرّؤيةَ وإن حصلتْ جملةً واحدة، لكنّ أثرَها منَ الاندهاش والتّعجّب ما يزال يتجدّدُ، فكأنّه لهول الموقفِ ما يزال يحدثُ ويحصلُ[1].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾:

ضميرُ الخطابِ في الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾ من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ للرّسول ﷺ، أو لكلّ من تصحُّ منه الرّؤيةُ من أهل التّكليف، والحملُ على العموم أولى في الإفادة؛ لعدم المانعِ من إرادته[2].

الأصـــــلُ في خطابات القرآن العـمـومُ إلّا ما ثبت تخصيصُه

دلالةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾:

﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ ظرفٌ لِما مضى منَ الزّمان؛ ولذا اقترن هنا بما مضى، وقد تفيدُ التّعليلَ على إضمار مفعولٍ للرّؤيّة، أي: ولو ترى أهلَ النّار بشرّ حالٍ؛ لِتَمَلُّكِ الفزعِ منهم[3].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في الآية:

يجوز أن يكون ﴿إِذْ﴾ نفسُه معمولًا لفعل الرّؤية، ويجرّدَ عنِ الظّرفيّة، على طريقة المجاز العقليّ، بإسناد الفعل إلى غير مفعولِه الحقيقيّ؛ إذِ المرادُ برؤية الزّمان رؤيةُ ما يشتملُ عليه منَ الوقائع والأهوال والمخاوفِ التي هي سببُ الفزع، وهذا منَ المبالغة في شأن ذلك الوقت، وأنّه ليس كسائرِ الأوقات، فيُخشَى ذلك الزّمنُ ويُهابُ كأنّه عينُ ما يقعُ فيه[4].

تـأخـذُ الأزمـنـةُ رُتبتَها من رتْبةِ حوادثِها الواقعةِ فيها

سرُّ إيثارِ لفظِ الفزعِ:

عبّرَ بالفزع دون غيره في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾، فلم يقل:

الفزعُ هو خوفٌ مـخـصـوصٌ بالمفاجأة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 564.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 205.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 544.

(خافوا)؛ لأنّ الفزع هو رعبٌ وخوفٌ مخصوصان بالمفاجأة، فهو الخوفُ المفاجئ، وهذا الفزع هو وقتُ البعث، وسمّاه تعالى بـ﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]؛ لكونِ قيامِهم منه يحصلُ فجأةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النحل: 21]، فيشعرون بأنّهم كانوا غيرَ مُهيَّئين لهذا الوقت أسبابَ النّجاة من هولِه، فعبّرَ بالفزع؛ ليدلَّ على أنّه خوفٌ مفاجئ غيرُ مستمرّ؛ لأنّ الخوف المستمرَّ لا يسمّى فَزَعًا[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في التّعبيرِ بالفزعِ:

جعلُ فزعِهم مرئيًّا مجازٌ عقليٌّ أيضًا؛ لأنّ الفزعَ نفسَه حالةٌ قلبيّةٌ لا تُرى كيفيّتُه، إنّما الذي يُرَى آثارُه الجاريةُ على الحواسّ.

توجيهُ الفعلِ ﴿فَزِعُواْ﴾ بين الاستعارةِ والحقيقةِ:

المستقبلُ الذي يخبرُ الله عنه هو بمنزلةِ ما قد حدثَ بالفعل لتحقّقِه حتمًا

في التّعبير بقوله: ﴿فَزِعُواْ﴾ ماضيًا استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ شبّه الوعيدَ المؤكَّدَ في انتظار حصوله مستقبلًا بالحاصل المُحقَّقِ في انقضائه وتمامِه، أو شبّه الواقعَ في المستقبل بالحاصل في الماضي في تحقّق الوقوع، فذكر لفظَ المشبّه به، وهو اللّفظُ الماضي، وأريد المشبّهُ وهو المستقبل، إلّا أن يُقال: إنّ المضيّ هو باعتبار ثبوتِه الكِتابيّ في اللّوح المحفوظ والأزليّ في علم الله، فحينئذٍ فالماضي على حقيقته، ولا استعارةَ[2].

معنَى الفاءِ في قوله: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾:

مـآلُ الـفـزعِ وعـلّـتُـه بسببِ عدمِ فوتِهم من قدرة الله عليهم

الفاء في قوله: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ لتفريعِ مدخولِها على ما قبْلها، أي: ترتّبَ على فزعهم وتسبّبَ عنه عدمُ فوتِهم من قدرة الله عليهم، فما بعد الفاء مُسبَّبٌ عمّا قبْلها[3]، ويصحّ أن تكون الفاء تعليليّةً، فما بعدها علّةٌ لِما قبْلها، فهي داخلةٌ على السّبب، أي: فزعُهم كائنٌ بسببِ عدمِ فوتِهم، كمن لا يجدُ مهربًا فيفزعُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 241، وابن عثيمين، مجموع الرسائل والفتاوى: 9/ 298.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 592.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 536.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 543، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.

دلالةُ جملةِ الاعتراضِ: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾:

أشدُّ الرَّوعِ ما تنعدمُ معه سبلُ الخلاص

جملةُ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ اعتراضيّةٌ بين المتعاطفات الماضية: ﴿فَزِعُواْ﴾، ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وفائدةُ الاعتراض: التّسجيلُ عليهم بأنّه فزَعٌ ليس في الإمكان الخلاصُ منه، فلا استراحةَ لهم ولا هدوءَ بين فزعهم وأخْذِهم[1].

معنَى (لا) في جملة ﴿فَلَا فَوْتَ﴾:

نفيُ الوجودِ أبلغُ من نفي الإمكان

(لا) في قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ هي النّافيةُ للجنس؛ لاستغراق نفْيِ أنواعِ الفَوت كلِّها، ونفيِ أدنى جزءٍ منه، أي: لا فوتَ يحصلُ لهم بأيّ وجه منَ الوجوه وبأيّ حال منَ الأحوال، ولا يخفَى ما في نفي الفوتِ مع حذف الخبر من نفي الوجود أصلًا، لا نفيَ الإمكان فقط، أي: لا فوتَ موجودٌ حتّى يحصلَ لهم، ونفيُ الوجود أبلغُ من نفي الإمكان[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالفوتِ دونَ السّبقِ:

نفيُ الفوتِ يدلُّ على شدّةِ الشَّرَك الواقعين فيه، بحيث لا إرادةَ لهم معه ولا اختيارَ

لم يقل في السّياق الكريم: (فلا سبْقَ)، بل قال: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ لأنّ الفوت أدلُّ على الأسْر والقهر والاحتجازِ والاضطرارِ منَ السّبْق، فلا يُقال لهم: سابقون، وهم متلبّسون بالفزع، غيرُ متمكّنين ولا مُختارين، بل متورّطون مرهونون، وأمّا السّبقُ فهو أليقُ بحالةٍ فيها نوعُ تمكّنٍ واختيار، فبدهيٌّ في الآية أن ينتفيَ عنهمُ السّبقُ وهم تحت سطوةِ الفزع؛ لأنّ السّبقَ هو التّقدّمُ على الشّيء بالقدرة على مجاوزته، فيُتصوّرُ في السّبق وجودُ مسافةٍ ممكنةٍ يمكنُ للسّابق قطعُها لإحراز التّقدّم عنِ الشّيء أوِ التّقدّم على ما سواه، وأمّا الفوتُ فليس معه ذلك الإمكانُ، فهو متلبّسٌ تمامًا بما لا يُفلته تقدُّمًا ولا تأخّرًا، فهو أدلُّ على نفي إدراكِ النّجاة، ونفيِ إمكان الفِكاك منَ السّبق[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(2) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 182.

(3) الراغب، المفردات: (سبق - فوت)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فوت).

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ الفوتِ:

نفيُ الفوت في قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ كنايةٌ عن لازمِه مِن استمرار قهرهم، وتحقّقِ يأسِهم، وانقطاعِ نجاتهم أبدًا.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾:

جملةُ: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿فَزِعُواْ﴾ وما بينهما اعتراضٌ سبق بيانُ دلالته[1]، وفي العطف مزيدُ تحقيرٍ لشأنهم، وترهيبٍ لهم زيادةً على الفزع، فليس ثمّةَ أيسرُ من أخذهم، وأهونُ من قهرهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالأخذِ:

صـوِّر الـعـذابُ بقادرٍ على الأخْذ

الأَخْذُ هو تناولُ الشّيء وتحصيلُه بقوّة وقهر، فهو إزالةٌ للشّيء من حِرزه الأوّل إلى حرز مُتناوِله، والمرادُ به في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ التّمكّنُ منهم والقبضُ عليهم؛ لملاقاة ما أُعِدّ لهم منَ العذاب، فشبّه الغلبةَ عليهم بالأخذ، بجامع التّمكّنِ في كُلٍّ، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّة[2].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿وَأُخِذُواْ﴾ لغيرِ فاعلِه:

يُـحـذَف الـفـاعـلُ لـشـدّةِ ظـهـوره، وتـوفّـرِ الـقـصـدِ على الفِعل

بُني الفعلُ لغير المعلوم في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ تحقيرًا لشأنهم، وأنّهم منَ الهوان بمكانٍ، لدرجة أنّهم قابلون للأخْذ على كلّ حالٍ، فلا حاجةَ لإظهار الفاعل حينئذٍ، ففي البناء لغير المعلوم تصويرٌ لسرعة أخْذِهم وفجْأتِه وسهولته[3].

لطيفةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمعِ ﴿وَأُخِذُواْ﴾:

إسنادُ الأخذ إلى ضمير جماعَتِهم في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾، أفاد عمومَ الأخذِ واستغراقَه لأفرادهم، فلا إفلاتَ لأحدٍ منهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 536.

معنَى ﴿مِن﴾ في القيد ﴿مِن مَّكَانٍ﴾:

جـعـلُ أخـذِهـم من مكان قريب يدلُّ على سهولة الأخـذِ وسرعـةِ التّمكّنِ منهم

﴿مِن﴾ في القيد بالمتعلّق في قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: بدأ أخذُهم وحصرُهم إلى العذاب من جهة مكانٍ قريبٍ وهو أرضُ المحشر[1]، أوِ المكانُ القريب هو القبور، ولهذا يقولون إذا خرجوا من قبورهم: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، فهم يُؤخذون من قريب من حين ما يخرجون منَ القبور، يُكشف لهم عن أمرٍ أعظمَ ممّا كانوا يشاهدونه في القبور[2].

دلالةُ التّعبيرِ بمفردةِ المكانِ:

لا حـصـانـةَ لمخلوقٍ إذا شاء اللهُ هزيمتَه

التّعبير بمفردةِ المكان في قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ﴾ إشارةٌ إلى عدم نجاتِهم بحالٍ، فمهما انحصروا في مكان مَكينٍ لا يَنجون، فالأماكنُ كلّها حينئذٍ ليستْ حصنًا لأحد أو حاجبًا حاميًا له، وليستْ نافذةً للهرب أوِ الفرار.

نكتةُ وصفِ ﴿مَّكَانٍ﴾ بـ ﴿قَرِيبٍ﴾:

قـوّةُ ربِّ العبادِ لا تتأثّرُ بالأبعاد والآماد

وصْفُ المكان بالقرب في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ للتّنبيه على عدم الإمهالِ في أخذهم إلى العذاب، فكلّما كان أخذُهم من جهة قريبة كان الانتهاءُ إلى الغاية أسرعَ وأسهلَ، فالمعنى: أنّ موضعَ أخذِهم قريبٌ من موضعِ إلقائِهم في جهنّم، على أنّ المراد منَ المكان أرضُ المحشر للحساب، وهذا شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمن: 41]، أي: يُؤخذون بالنّواصي والأقدام لإلقائِهم في النّار، وإن كان المرادُ بالمكان القريب القبورَ، فهو قريبٌ من مكان الحسابِ والمحشرِ الذي هو قريبٌ من جهنّم، وعلى كلٍّ: فأخْذُهم عُنوةً يجعل ما حسِبوه منَ الأماكن بعيدًا عن ملاقاة مصيرهم - يجعلُه قريبًا وشيكًا؛ لكونِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 309.

أَخْذًا بمطلق القدرة والقهرِ التي لا تتأثّر بحواجز المسافات، ولا بالأبعاد والآماد[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قرب المكان:

وصْفُ المكانِ بالقرب في قوله: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كنايةٌ عن سرعةِ نزول العذاب بهم، والاستهانة بهم وبهلاكِهم، وإلّا فلا قُربَ ولا بُعدَ بالنّسبة إلى الله ﷻ[2]، لكن يجوز أن يُجعل القربُ منوطًا بمبدأ غاية الأخْذِ ومنتهاه، بالنّسبة إلى مكان ابتداء الغاية ومكانِ انتهائها، لا بالنّسبة إلى الآخِذ وهو المولى سبحانه.

الله سبحانه خالقُ الأماكنِ والأزمانِ، والمخلوقُ لا يؤثّرُ في الخالق بحالٍ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فعيل) في ﴿قَرِيبٍ﴾:

التّعبيرُ عنِ القرب في قوله تعالى ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بصيغة (فعيل) صفةً مشبّهةً؛ للدّلالة على ثبوت الصّفةِ، أي: دائمُ القُرب.

بلاغةُ الجناسِ بين كلمتَيْ ﴿قَرِيبٍ﴾ و﴿قَرِيبٌ﴾:

كلمتا (قريب) في: ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هنا، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ جناسٌ تامٌّ اتّفقت فيه الكلمتان في الحركات والحروف عددًا وترتيبًا، مع الاختلاف التّامِّ في المعنى حقيقةً ومجازًا، وهو محسّنٌ بديعٌ جرى على غير تكلّفٍ[3].

كلّما خلا الكلامُ من وضمةِ التّكلّف كان أبلغَ

موقعُ جملةِ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾:

جملةُ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ﴾، فاجتمع لهم - بعد الفزع والأخْذ - الاضطرارُ للإيمان، وقد خرج وقتُه، بخروجهم منَ الدنيا[4].

نكتةُ الإجمالِ في الضّمير:

مرجعُ الضّمير في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إلى ما كان يجبُ

ما يكفي فيه الإجمالُ، كان التّفصيلُ فيه فضولًا لا يُضيفُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.

عليهم الإيمانُ به بالغيب، فلم يؤمنوا به إلّا مُشاهدةً لما عاينوه، فيعودُ إلى الوعيد، أو يوم البعث، أوِ النّبيّ ﷺ، أوِ القرآن؛ لأنّ جميع ما يصحُّ مَرجِعًا للضمير مُشاهَدٌ لهم، فأجملوا فيما يرادُ الإيمانُ به؛ لأنّهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه مُنْجيًا لهم منَ العذاب، أوِ الإجمالُ في الضّمير؛ لعودِه على اللّفظ المجمل الجامع وهو (الحقّ) في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: 48]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، ولذلك أُفرد[1].

معنَى (الواو) في ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾:

جملةُ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ اعتراضيّةٌ بين قوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لتسجيل الإنكارِ عليهم، وانقطاعِ أمانيهم، وهي في الاعتراض شبيهةٌ بجملة ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ بين المتعاطفات، ويصحُّ أنْ تكون استئنافًا بالإنكارِ عليهم، بعد إقرارهم بالإيمان على غير طائل، فيحسنُ الوقفُ على قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، ثمّ الابتداءُ بقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، وفي الابتداء بهذا الاستئناف ترهيبٌ وإجلالٌ لمقام يومِ القيامة الذي لا ندمَ فيه ولا اعتذار[2].

يومُ القيامةِ يومُ حسابٍ وأهوال لا يـومَ إيـمـانٍ وأعمال

دلالةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾:

(أنّى) في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ استفهاميّةٌ بمعنى: (كيف) أو (مِنْ أين)، أي: كيف، ومن أين لهمُ التَّناوشُ؟ والاستفهامُ مجازيٌّ، معناه الإنكارُ والنّفي والاستبعاد، على طريقة المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتّقييد، أي: يبعُد لهم التّناوشُ منَ المكان البعيد، كأنّه قيل: لا سبيلَ لهم إلى تناول الإيمان؛ لذهاب أزمانِ التّكليف[3].

خـروجُ الـوقْـتِ مـؤذِنٌ بـفـوات الفُرصة

ويُراد بـ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ السّؤالُ عن موضع التّناوش، وعن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 242.
(2) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 184.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 311، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 22/ 183.

حالتهم التي هم فيها، وكلاهما استفهام غيرُ حقيقيٍّ، فالغرضُ منَ العدول إلى (أنى) توسيعُ المعنى، وزيادتُه فبدل أن يكرِّر عدّةَ تعبيرات لإفادة هذين المعنيَين جمعهما بلفظ واحد[1].

دلالةُ القيدِ ﴿لَهُمُ﴾ وسرُّ تقديمِه:

اللّام في: ﴿لَهُمُ﴾ من قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ للاختصاص؛ لكونِ الاستفهام عنهم، والتّناوش المذكورِ خاصًّا بهم، وقُدّم الجارُّ والمجرور على المبتدأ: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ لكون الاستفهامِ عنه، فهمُ المقصودون منَ الاستعجاب بالاستفهام.

دلالةُ مجيءِ ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ على صيغة (التّفاعل):

التّناوشُ: مصدرٌ قياسيٌّ للخماسيِّ (تناوش)، وزنه (تَفاعُل) بفتح التّاء وضمّ العين، و(تفاعُل) يدلُّ على المشاركة والمطاوعةِ، والمطاوعةُ هنا في الآية منفيّةٌ بانتفاء التّناوش، وتصويرُ تلك المُطاوعة حاصلٌ؛ لأنّ المتناوِلَ لما يُريد، كأنّه حتّى يحصلَ عليه يُحاوِل التقاطَه، فيعزُبُ عنه ذلك المُراد؛ لِبُعدِه، وكأنّ المُراد لمّا لم يكن في الإمكان، كان كأنّ له إرادةً امتنع بها على مُريدِه، أو أنّ المطاوعة منفيّةٌ باعتبار إرادةٍ حقيقيّةٍ فيمن يملك أمْرَ الشّيء المُرادِ، وهو اللّه سبحانه المؤثّرُ والفاعلُ الحقيقيّ في كافّة الشّؤون عطاءً ومنْعًا[2].

اللّه هو الفاعلُ الحقيقيُّ في كلّ شأنٍ عطاءً ومنعًا

نكتةُ التّعبير بالتّناوش دونَ التّناول:

عبّر بالتّناوش دون التّناول في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ لأنّ الذي يتناول الشّيء إذا كان عن قرب يقال: تناولَه وأدركه، وأمّا إذا كان عن بعد فيقال: تناوشَه[3]، وهذا مبنيٌّ على أنّ التّناوش هو تناولٌ للشّيء في غير حينه ووقته، فيكون تناولًا للبعيد، وهو ما

التّناوشُ محاولةُ قبْضِ ما ينفلِتُ ولا يتأتّى الإمساكُ به

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 255 - 256.
(2) صافي، الجدول: 11/ 245.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 311.

يَتعذّرُ ولا يحصلُ[1]، وقيل: عبّر بالتّناوش دون التّناول؛ لأنّ التّناوش هو تناولٌ مخصوصٌ بالسّهل القريب[2]، فكأنّه عبّر به هنا نكايةً وتعريضًا بهم، ونعيًا عليهم؛ لأنّهم حينئذٍ يجعلون الصّعب سهلًا، والبعيدَ قريبًا، وهو تناول أسبابِ الإيمان في غير زمن التّكليف، فهم يريدون تناوشَها وكأنّها سهلةٌ قريبة، وهيهات! فهي متعذّرةٌ بعيدةٌ، فكأنّه قال: وأنّى لهم تناولُ مرادِهم وقد بَعُدوا عن مكانِ إمكانِ ذلك[3]! وعلى كلا الوجهين السّابقين، فالتّناوش: تناولٌ مخصوصٌ بحالٍ مخصوصة.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، مثّل حالَهم بحالِ من يريد أن يتناول الشّيءَ من بُعد، كما يتناوله الآخَرُ من قُرب، وهذا تمثيلٌ على طلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعَهم إيمانُهم بعد نفادِ وقت التّكليف والتّوبة[4]، فقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾: أنّ التّناوش إنّما يكون من مكان قريب، وهم يتناوشون الشّيءَ البعيد منَ المكان البعيد؛ ولذلك فلن يحصل لهم مبتغاهم؛ لإخلالهم بشرط القُربِ الذي لا بدّ منه في معنى التّناوش.

التّناوشُ لا يُقال إلّا فيما قَـرُبَ، فالشّيءُ البعيدُ يؤخَذُ ويُتناوَل ولا يُتناوَش

بيانُ إجراءِ النّظمِ على التّشبيه المفردِ المفرّقِ:

يصحُّ إجراءُ قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ على التّشبيه المفرّق المفرد، بتشبيه جزءٍ بجزء، ولفظٍ منَ الجملة بما يناسبُه، فيشَبَّه السّعيُ بما يحصل بسرعة بالتّناوش، ويشبّه فواتُ المطلوبِ بالمكان البعيد، كالحوض بعيدِ القعر يُلتمَسُ منه الإمساكُ بالسَّمَكِ فيه، فيفْلِت ويفوت ويعسُر على التّناول، أو كالحوض تَنوشُه

البعيدُ عسِرٌ، فتناولُه متعذِّرٌ، والقريبُ مزهودٌ، فعدمُ تناوله حماقةٌ

(1) الثعلبي، الكشف والبيان: 22/ 138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 593.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 426.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 566.

الإبِل، أي: تشربُ منه ما علا منَ الماء؛ لأنّه السّهل القريب، ولا تغوص في قعره لتشرب؛ لكونه البعيدَ العَسِرَ[1].

بلاغةُ الطّباقِ في ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، و﴿مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

بين قوله تعالى: ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ في الفاصلة السّابقة، وقولِه: ﴿مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هنا - محسّنُ الطّباق البديع، وهو طباقٌ بالإيجاب، صُرِّح فيه بإظهار الضّدّين[2]، وفي اجتماعهما تلميحُ انحسارِ الأماكن عليهم؛ فقربُ مكانهم دليلُ سهولة أخذهم، وسرعته، وبُعد المكان دليلُ انتفاء الحصول على مبتغاهم مهما سَعوا.

الأماكنُ ثابتةٌ، وقربُها أو بُعدها بحسب السّاعين إليها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفزعُ والرّعبُ:

الفزع والرّعبُ كلاهما من أجناس الخوفِ المخصوصةِ، فالفزَعُ: انقباضٌ ونُفورٌ يعتري الإنسانَ منَ الشّيء المُخيف، وهو من جنس الجزَع، يعني يقطع الإنسانَ ويصرفُه عن مُلاحظة ما هو بصدده، فهو حاجِبٌ وصارِفٌ كالجزَع، ويمكن أن يقال: إنّ الفزع هو الخوفُ الصّادِم المفاجئ الذي يزلزل القلبَ ويحطّمُه؛ لمُلاقاته هَوْلًا غيرَ معهود، ولذا يذعرُ ويفْرَق، كأنّه بالفزع صارت نفسُه أبعاضًا وتفاريقَ من قوّة الانزعاج والمفاجأة والزّعزعة؛ ولذا عبّر هنا في الآية بـ﴿فَزِعُواْ﴾؛ لملاقاتهم هَوْلًا غيرَ معهود، فيخرج به القلبُ عن عهْدِه فيفزعُ[3]، وأمّا الرّعب فيقترن بمعنيَي الانقطاع، والامتلاء، فهو خوفٌ يملأ النّفْسَ ويُغرِقُها ذُعرًا حتّى تتقطّع عزائمُها وتصيرَ تفاريقَ ممزّقةً، والرُّعبُ ناقِضٌ للعزائم دائمٌ، وهو طويلُ المدى عنِ الفزع، ولذلك جعله اللّهُ أداةً للنّصر على الأعداء، فقال: ﴿سَأُلْقِي فِي

الفزَعُ إن استمرّ صار رُعبًا!

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 243.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.

(3) ابن فارس، المقاييس: (فزع)، والراغب، المفردات: (فزع - جزع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فزع - رعب).

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: 12]، ولم يأتِ الرّعبُ في القرآن في أحوال الآخرة، بل جميعُ سياقاته في الدّنيا، ولعلّ السرَّ في ذلك أنّ الرّعب طويلٌ أمَدُه، ويومَ القيامة سريعٌ حسابُه ناجزٌ في أهوالِه؛ لأنّها متبوعةٌ بالجنّة أوِ بالنّار، وعليه نستطيع التّفريق بين الفزع والرّعب، بأنّ الفزع طَرَفٌ منَ الرُّعب، وذلك لاقتران الفزع بفجْأةٍ تُخيف، بدليل قولِه تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ص: 22]، ولذلك كان غيرَ مستمِرّ، أمّا الرّعب فقد يستمِرُّ ويطول، مع ما في الرُّعبِ منِ اتّساعٍ وتبسُّطٍ للخوفِ في النّفْس[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رعب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»